محاضرات في اللسانيات التطبيقية
المحاضرة الأولى في السداسي الثاني
اللسانيات التطبيقية من ملابسات النشأة إلى تشعّبات التطور (1)
إعداد: أ.د: محمد خاين

توطئة:

إن نحن أردنا تحرّي الدّقة العلمية في تتبّع المسار التاريخي للسانيات التطبيقية نشأة وتطورا، وجب علينا الوقوف عند المحطات الكبرى، والتي يمكن اعتبارها مفصلية فيما وصل إليه هذا التخصص، لأن فهم السياق التاريخي وملابساته يعيننا على الوعي بأهم إشكالاته، ومقاصده وغاياته، ومن ثمة إدراك المنحى الذي سلكه في التعامل مع الظاهرة اللغوية بوصفها نشاطا إنسانيا يعتريه من المعوّقات والعراقيل التي تتطلب التدخل، واقتراح المخارج الصحيحة لتجاوز ما قد يحدث من أزمات على مستوى التواصل.

تأسيسا على هذا التقديم نقترح هذه المقاربة للتعامل مع الملمح التاريخي الإبستيمي، مستندين على المفاصل الآتي بيانها، مراعين في ذلك الفضاءات الجغرافية التي نما وترعرع فيها هذا الحقل المعرفي مصطلحا ومفهوما وموضوعات:

1-1- في السياق الجرماني: الولادة والاحتضان.

مما شاع بين الدارسين، وخاصة العرب، أن البيئة الأمريكية هي الحاضنة الأولى للدراسات اللسانية التطبيقية، وأن المصطلح الموضوع عنوانا للعلم ملكية فكرية أمريكية بامتياز، ونحن نرى أن في هذا مجانبة للصواب، وخلط ما بين مأسسة(Institutionnalisation) اللسانيات التطبيقية بوصفها تخصصا علميا، واستخدامات المصطلح قبل دخوله المؤسسات الأكاديمية، أي أنه علينا أن نؤرخ له من بدء توظيفه في الأبحاث والدراسات العلمية الأكاديمية التي ظهر فيها، والسياق الذي احتضنه.

فقد وظف أحد الدارسين الألمان واسمه هيرت(H.Hirt)، مصطلح اللسانيات التطبيقية*(angewandte sprachwissenschaft)*، بمفهوم وظائفي قريب مما هو متداول حاليا في ثنايا حديثه عن ضرورة التوجه إلى استثمار نتائج اللسانيات في إنارة البنية الأثنولوجية لعصور ما قبل التاريخ، وكان ذلك سنة1898. ولكن كان على الدارسين الانتظار حتى سنة1931 ليعاود المصطلح الظهور، ووفق زاوية تناول أكثر نضجا من لدن مهندس ومعجمي نمساوي آخر يعرف باسم يوجين ووستر(EugenWuster 1898-1977)، ويورد صاحب الدراسة المحال عليها ههنا، والذي اعتبر السنة المذكورة سنة مفصلية بالنسبة إلى اللسانيات التطبيقية متخذا من جملة من الاقتباسات استقاها من عدد من الدارسين برهانا على دعواه، ومنها ما ساقه أحدهم في عرضه

لكتاب ووستر الذي ورد فيه المصطلح، ولم يخف اندهاشه من الاكتشاف الذي أنجزه هذا الأخير، وقد ذهب إلى حد التشكيك في المنجز المتعارف عليه بين الباحثين، من خلال دعوته إلى نسبة المصطلح إلى صاحبه الحقيقي.

كما ساق الدارس تصريحات ووستر في أعماله اللاحقة بكونه أول من وظف المصطلح في كتابه الصادر سنة 1931بدءا من الفقرة الأولى لمدخل الكتاب، وذلك في معرض حديثه عن وجوب تسلّح الباحث اللساني بالمعرفة التقنية مثلما على المهندس اكتساب المعارف اللسانية. وقد حرص ووستر على مدار الطبعات المتتالية للكتاب على التأكيد على أنه واضع المصطلح وخاصة في طبعة سنة1974 ، والتي يقول فيها: إنه ليس من المصادفة أن يظهر تعبير اللسانيات التطبيقية لأول مرة في سنة1931في الكتاب الذي جمعْنا فيه المواد والمرتكزات الأولى لنظرية عامة في المصطلحية.

فهذه الإضاءة تشير إشارة واضحة إلى أن منشأ المصطلح ألماني وخاصة مع توفّر نسخ الطبعة الأولى من الكتاب بوصفها دليلا ماديا لا يمكن نكرانه، وتوظيف المصطلح بالمفهوم المتداول حاليا في حقل الدراسات المصطلحية، والتي ما زالت إلى يوم الناس هذا من الميادين المفضلة للسانيات التطبيقية، بل وتعد من كلاسيكيات البحث اللساني التطبيقي، وهو الأمر الذي حدا بدارسيْن آخرَيْن إلى التصريح في معرض حديثهما عن الدور الذي أداه ووستر في ميادين علمية مختلفة، منها اللسانيات التطبيقية، أنه يجب الاعتراف، ونحن بصدد الحديث عن التأثير الإبستيمي لووستر من خلال كتابه العمدة الذي عمل فيه على التحضير ومن ثمة التأسيس للسانيات التطبيقية.

وفي مقتطف من مجلة فيينا*(Wiener Zeitung)*يعود إلى 30جوان1973 يذكّر ببروز مصطلح لسانيات تطبيقية كما رسم معالمه ووستر، في مبحث خاص يدور حول التعليم التطبيقي للغة بصيغة *(angewandte sprachlehre)*، قبل هذا التاريخ، وبالتحديد سنة1925 لدى باحث نمساوي هو تيودور ستيش(Theodor steche)، والذي حلّ محلّه مصطلح لسانيات تطبيقية*(angewandte sprachwissenschaft)*، ليتتابع بعدها استخدامه في كتابات ناطقة بالألمانية في ثلاثينيات وخمسينيات القرن الماضي. مما يعطي الانطباع على أنها ممارسة مقصودة وليست عابرة في التوليد المصطلحي، وفي الاستخدام الواعي له في الفضاء الناطق بالألمانية، بعقود قبل تداوله الأنجلوساكسوني، وعلى أنه قد سبقت ظهوره العلني أعمال ممهدة استثمرها ووستر في إخراجه إلى حيز الوجود. ولكن الذي أدى إلى عدم شيوع أعمال ووستر ، وسبقه العلمي، أن أغلب أعماله لم تترجم إلى اللغات الرائجة كالإنجليزية والفرنسية، ومن ثمة لم يطلع عليها غير الناطقين بالألمانية.

ومما ينبغي تسجيله ههنا أن اللسانيات التطبيقية عُرفت في الفضاء الجرماني بطابعها المعياري خلال العهد المشار إليه آنفا، قبل أن تنفتح على المساعدة في تيسير التواصل في البيئة الأنجلوساكسونية، وهو الأمر الذي حدا بووستر إلى إبداء ملاحظته في أعمال لاحقة أن التقييس المصطلحي لم يسجل دخوله إلى مدونات الجمعية الدولية للسانيات التطبيقية(A.I.L.A) إلا متأخرا، كما ذكرّ بإسهامات اللسانيات التطبيقية في أشغال إصلاح الكتابة(Orthographe) من خلال لجنة المصطلحية للمنظمة الدولية للتقييس (ISO) ومنظمة (Infoterm) والجمعية الدولية(A.I.L.A).

ولكن علينا ونحن نسجل السبق الفكري الألماني فيما يخص المصطلح، وضعا وتوظيفا لأول مرة في نهاية القرن التاسع عشر، فإن الأمانة تفرض علينا أن نقر بما توافر لدينا من معطيات أن ثاني استخدام له لفظا ومفهوما قريبا بما استقر عليه حاليا، ولم نجد له ذكرا في الوثائق المؤرِّخة لتطور استعمال اللفظ من الدلالة العامة إلى الدلالة الاصطلاحية في الأدبيات الغربية، كان من لدن الأنثروبولجي الفرنسي ليون أزولاي (Léon .Azoulay)، وكان ذلك في مقال له نشره في دورية للجمعية الأنثربولوجية بباريس سنة 1903، بعنوان: اللسانيات التطبيقية. الاختبار اللغوي بوصفه وسيلة لتحديد هوية الأفراد الخاضعين للبحث العلمي*، والذي يصرح في بدايته: إنه قرر أن يستخدم اللسانيات وسيلة اختبار في عمل ميداني يقوم على تعريض مجموعة من المبحوثين الأفارقة(من غانا) لهذا الاختبار بغية معرفة إثنياتهم، وانتماءاتهم الجغرافية، عبر الفُوَيرِقات الصوتية التي تظهر لديهم في لحن القول، وكما هو ملاحظ فإن هذا العمل أنثربولوجي، ويمكن إدراجه ضمن اللسانيات الجغرافية والتي هي من التخصصات الفرعية للسانيات التطبيقية حاليا. أي أن الاستخدام الثاني للمصطلح قبل أن يظهر في كتاب النمساوي ووستر المشار إليه بحوالي ثمان وعشرين سنة.

1-2- في السياق الأنجلوساكسوني: المأسسة والانتشار.

يذهب أغلب من أرخ للسانيات التطبيقية إلى التفريق داخل الفضاء الأنجلوساكسوني بين تيارين أحدهما بريطاني، والثاني أمريكي، وأنه لكل منهما غاياته، وأدواته المنهجية، وأساليبه في الممارسة، وتصوره العام الذي قد لا يتقاطع مع ما لدى نظرائه في الفريق الآخر، ومن ذلك مثلا التفريق ما بين اللسانيات التطبيقية(Applied Linguistics) في التقليد البريطاني، والتطبيقات اللسانية(Linguistics applied) في التقليد الأمريكي، وقد أُرجِع هذا التفريق في جزء منه إلى المكانة التي يحتلها تعليم اللغات لدى البريطانيين، والتي تفوق نظيرتها عند

* Linguistique appliquée. L’épreuve linguistique comme moyen d’identification des individus soumis aux recherches scientifiques .

الأمريكان، نظرا لكون أغلب اللسانيين التطبيقيين البريطانيين هم معلمو لغة إنجليزية، بوصفها لغة أجنبية في المقام الأول. كما أن هذه الرؤية وهذا التصور العام قد سمحا للبريطانيين بتشكيل تصميم للسانيات التطبيقية يشْغَل فيه تعليم اللغات الثواني والأجنبية موقعا مركزيا، ويحتل فيه التجديد المنهجي لطرائق التعليم ومناهجه مكانة معتبرة.

وقد كان تطور التيارين موضوعا لانطباعات وآراء متنوعة، فالتيار البريطاني نُعت بالوصفي، وأصحابه متأثرون بالنظريات الفيريثية(Firthiennes) المتمركزة حول الكلام ويشتركون جميعا في المقاربة الاجتماعية للغة، أما التيار الأمريكي فكان لسانيا صرفا، ويمثله البلومفيلديون(Bloomfieldiens) المتأثرون بالنظريات السلوكية. كما يكادون يجمعون على أن تطور التيارين لم يكن لا متوزايا ولا خطيا، بل وذهب البعض منهم إلى التأسيس لتقاطعات بينهما واندماجات، وصلت بفريق من الدارسين إلى إثبات وجود حركات تجمَع لسانِيين من التيارين.

والشاهد في ذلك أن كوردر قد تُلُقِفت دراساته التقابلية وأبحاثه في تحليل أخطاء متعلمي اللغات الأجنبية، وتمّ احتضانها، في الولايات المتحدة، بكيفية أفضل مما في بريطانيا، ومن ثمة فإن هذا التصنيف يبقى نسبيا، ولا يمكن تعميمه، وكأنه قاعدة مطلقة تنسحب على الجميع، فالتوجهات العلمية تعلو فوق الأوطان، وتنفلت عن التقييد والتنميط، وما يقدمه الدارسون من محاولات حصر وتعيين يبقى مجرد عزل منهجي الغرض منه تسهيل الدراسة، وتقريب المعارف إلى المتلقي لا غير، ومحاولة اجتهاد القصد منها تلمُّس القواسم المشتركة التي يمكن من خلالها حصر وضبط توجُّه بعينه يجمع ما يمكن جمعه من السمات التي تقرِّب بين أفراد تيار ما، وتؤطر أبحاثهم.

1-2-1- التيار البريطاني:

يعود استثمار النظريات العلمية في الدراسات التطبيقية حول اللغة في التقليد البريطاني إلى عصر النهضة في أوربا، إن نحن توخينا الدقة التاريخية والعلمية، ولكننا سنتجاوز هذا الإطار الزمني، ونختصر مسافته في نهاية القرن التاسع عشر. والتي يُعزَي فيها إلى هنري سويت(Henry Sweet)(1845-1912)دور محوري من خلال دراسته التطبيقية على اللغة(Pratical study of language)، التي أصدرها سنة 1894. والتي تعد بمثابة إصلاح للممارسة التعليمية للغات، من خلال العمل على تقويض المبادئ التي كان يقوم عليها تعليم اللغات، نظرا لكثرة الثغرات والعيوب التي شابتها، ولنا أن نجملها في:

1- ارتكاز تعليم اللغات على التلقين والتحفيظ لقوائم طويلة من المفردات.
2- إيلاء الأهمية القصوى لقواعد نحوية غير مستعملة في التوظيف اللغوي.
3- انتاج ترجمات أدبية لا تجدي نفعا في الممارسة الشفوية للغات.

وكان البديل الذي اقترحه سويت لإصلاح تعليم اللغات يتأسس على المبادئ الآتية:

1- أولوية اللغة المنطوقة وتعليم الأصوات.
2- ارتكاز منهجية التعليم على الممارسة الشفوية.
3- مركزية النص في العملية التعليمية.

وبذلك يكون من الداعين إلى إحداث القطيعة مع الممارسات التعليمية السائدة، وتأسيس مناهج تعليمية وفق رؤية تطبيقية تستند إلى النظر في طبيعة اللغة، وتفحُّص طرائق اشتغالها، ويُحترم فيها التدرج الطبيعي للاكتساب والتعلم. وبهذا الطرح يكون قد سبق الكثير من اللسانيين التطبيقيين والمشتغلين بقضايا تعليم اللغات الذين جاؤوا من بعده برفضه لطريقة القواعد والترجمة، التي بقيت تحتفظ ببريقها وبعض وهجها إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وبدعوته إلى تقديم المنطوق على المكتوب في العملية التعليمية، يكون قد سبق حتى سوسير نفسه الذي أعاد الاعتبار للمنطوق. وقد نذهب بعيدا في الحديث عن سبقه العلمي، إن نحن عرّجنا على دعوته إلى مركزية النص في العملية التعليمية، والتي هي من أحدث مناهج تعليم اللغات، المتبناة حاليا في أغلب دول العالم، فيما يسمى بالمقاربات النصية. والمستوحاة من النظرية البنائية(Théorie constructiviste)لجون بياجيه(Jean Piaget)*. فلهذه الأسباب وغيرها اعتبرت أعمال سويت مشروعا لسانيا تطبيقيا إصلاحيا لتعليم اللغات، وأرضية ممهدة للدرس اللساني التطبيقي لدى متابعي أعماله، كما سنرى مع فيرث وهاليداي.

لقد جاءت الدَّفعة الثانية المكمّلة لما بدأه هنري سويت في ترقية التطبيقات اللسانية تنظيرا وممارسة في بريطانيا من لدن واحد يعتبر من أشد المعجبين بإسهامات سويت في ميدان البحث اللساني، إذ إنه كان يستحسن ربط اسمه بهذا الأخير. إنه فيرث(Firth 1890-1960)، المتابع للمسار البحثي الذي سلكه سلفه، ومطوّرا له، ونجيز لأنفسنا أن نحوصل منجزه العلمي كله تحت مسمى اللسانيات الوصفية.

اتخذ فيرث من" التطبيق" مصطلحا مفتاحيا في الدراسات التي أنجزها في ميداني الصوتيات ومسائل الكتابة. والتطبيق عنده يشمل التهيئة والتكييف والفعالية، وهو يرى في توجهه العلمي هذا أنه لا يمكن تصور التطبيق بمعزل عن النظرية المؤطِّرة بوصفها التأسيس العلمي الذي تكتمل به شرعية الممارسة. ففي بحث له موسوم بتطبيقات اللسانيات العامة(Applications of general linguistics) سنة1957

---

* Jean Piaget(1896-1980): عالم موسوعي سويسري(لساني، نفساني، منطقي، إبستيمولوجي)، اشتهر بكثرة التأليف في شتى فروع المعرفة الإنسانية، وبنظريته البنائية، المستثمرة في جل المنظومات التعليمية في العالم في بناء المحتويات المعرفية التعليمية.

يعرف فيرث اللسانيات الوصفية بكونها عنصرا من العناصر المشكلة للسانيات العامة، وأنها تطبيق لنظرية اللغة في وصف اللغات الخاصة(Restricted languages)، وهو بهذا يكون قد انخرط في النقاشات التي دارت حول اللسانيات التطبيقية، التي عرفت المأسسة في الولايات المتحدة الأمريكية منذ أربعينيات القرن العشرين، مبديا اعتراضه على البلومفيلديين الذين طبقوا مناهج مستوردة من تخصصات أخرى غير اللسانيات. فقد أعرب عن أسفه لإقدام اللسانيين على تطبيق مناهج البيداغوجيا(وهي في نظره لا تخرج عن المناهج المستوردة من المنطق، والبلاغة والفلسفة، وعلم النفس) في هذا الحقل المعرفي.

وإن اعتراض فيرث لا يعني رفض تطبيق النظريات والمناهج غير اللسانية في تعليم اللغات، بل يدعو إلى أن يُعكَس الاتجاه، وذلك بأن لا تهيمن البيداغوجيا على اللسانيات، بل الواجب في نظره هيمنة هذه الأخيرة على البيداغوجيا، لأن النظرية اللسانية طُوِّرت بما فيه الكفاية وامتلكت من الاستقلالية ما يؤهلها لصلاحية التطبيق على المشاكل اللسانية للغات.

ويترادف مفهوم التطبيق عند فيرث مع مفهوم الوصف اللساني انطلاقا من كونه أحد واجهات اللسانيات العامة، ولأنه تطبيق لنظرية اللغة. ومن ثمة يصير غرض اللسانيات الوصفية تحليل معاني المصطلحات اللسانية الصرف كالبنيات والأنساق في مختلف مستوياتها(الأصوات ووظائفها، النحو، المعجم، الأسلوب، السياق) شريطة ألا تنبني المقاربة على الثنائيات، في مخالفة صريحة لسوسير وأنصاره.

ويذهب فيرث في مقاربته إلى أنه بالنسبة للغات واسعة الانتشار كالإنجليزية ينبغي أن يتجه تطبيق الوصف اللساني إلى اللغات الخاصة، مثل لغات التخصص في العلوم والتقنية والرياضية والدعاية السياسية، ويتسع عنده التطبيق ليصل إلى لغة الشعر والنصوص النثرية الأدبية، والترجمة، ووضع قواعد لمختلف تنوعات اللغة الإنجليزية، ويصل المدى حتى النحو التعليمي.

ويحضر الغرض الإجرائي النفعي في أبحاث فيرث، كما لدى سلفه سويت، في وصف لغات الإمبراطورية البريطانية مكتوبة كانت أم منطوقة، وهو انشغال لازم الدراسات اللغوية البريطانية بدءا من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. ونشير هنا إلى أن وفاته سنة1960 قد تزامنت مع ما عرف في الأدبيات البريطانية بسنة إفريقيا(the year of Africa) نتيجة انتشار موجة تصفية الاستعمار في القارة الإفريقية في السنة نفسها. وقد نجم عن موجة التحرر هذه حاجة ملحة، الغرض منها ترقية طرائق ومناهج تعليم اللغة الإنجليزية بوصفها لغة أجنبية أو ثانية في المستعمرات القديمة، ومن ثمة اتُّخِذ من مسألة اللغات الخاصة الذي انبنت عليه أبحاث فيرث تحليلا وتفكيكا موضوعا لأشغال مؤتمرات المجلس

البريطاني(British Council) ومنظمة الكومنولث(Commonwealth)، ومَنْ عُرفوا فيما بعد بالفيرثيين الجدد(Neo-firthiens).

إن قراءة عجلى في الإسهام الفيرثي تؤكد أن ما غاب في القضايا المطروحة هو المصطلح الصريح "Applied linguistics"، فالتطبيق والوصف اللساني بالفهم الذي قدمه لهما فيرث يصيران من الجهاز الواصف لهذا الحقل المعرفي، كما أن الموضوعات التي تناولها بالدراسة تدخل ضمن دائرة اللسانيات التطبيقية، إضافة إلى حضور البعد النفعي بصورة جلية في الأبحاث المنجزة، وكذا الحديث عن المشاكل اللسانية للغات، وعن التهيئة والتكييف والنجاعة، وربما يعود تحفظه على المصطلح إلى الاعتراض على إقحام المناهج المستوردة من التخصصات الأخرى في الميدان اللساني، وهو يرى أن اللسانيات تمتلك الأهلية والقدرة على توصيف قضاياها، وحل مشاكلها بنفسها، وليست بحاجة إلى الاستعانة بمناهج ولغة واصفة من خارجها، أي أنها تعالج نفسها بنفسها، وفي هذا مخالفة لما عُرف عن التيار الأمريكي من انفتاح نحو أفاق أرحب، والذي تكرس فيما بعد في سائر الممارسات اللسانية التطبيقية بوصفه حقلا بين- تخصصيا كما رأينا وما سنرى فيما يأتي من المباحث.

وممن يذكر لهم الإسهام في اكتمال المنجز اللساني التطبيقي في المملكة المتحدة، وبلوغه مرحلة النضج والمأسسة، واسمه لا يكاد يُفصَل عن جامعة أدنبرة ومدرستها الشهيرة في اللسانيات التطبيقية، والتي يؤرِّخ بها الدارسون لهذا الميدان بوصفها ثاني محطة هامة في مأسستها سنة1957، هو كوردر، فقد التحق بها منذ 1956. وعمل على التعريف باللسانيات التطبيقية، ومجالاتها، وتمظهرات التطبيق فيها، ومراحله، وكيفية ممارسته، وأهميته، وغيرها من القضايا المرتبطة بهذا الميدان، وبنشره لمقاله المرجع "حول أخطاء المتعلمين"* سنة 1967يكون قد اتجه وبعمق إلى تعديل موقف اللسانيات التطبيقية من تعليم اللغات.

فقد مثّل المقال المذكور عند باحثي شمال أمريكا، علامة فارقة في التأسيس لما أضحى ينعت باكتساب اللغة الثانية(SLA)*، والمعروف عندهم بكونه ميدانا فرعيا من ميادين اللسانيات التطبيقية، وكانت غايتهم بعد أن أرسى كوردر معالمه الكبرى الوصول به إلى أكبر قدر من العلمية، التي افتقدوها – حسب زعمهم- في الأبحاث ذات الطابع المنهجي، ومن ثمة وقع ما عرف فيما بعد بالتحول في مركز الاستقطاب، إذا لم يعد الاهتمام منصبا على التعليم على أنه أولوية، بل انزاحت الدراسات نحو عمليات الاكتساب اللغوي، وقد وقع ذلك بتأثير من أبحاث تشومسكي(Noam Chomsky)، ونظريته التي طلع بها على العالم في النحو التوليدي

---

* On the significance of learner's errors

* Second Language Acquisition

التحويلي، وما صاحبها من ثورة معرفية، وتحويرات كبيرة مست الجهازين المصطلحي والمعرفي، والأبعاد الإبستيمية في حقل اللسانيات عامة. على الرغم من أن تشومسكي قد فاجأ العالَم اللساني بتصريح مؤداه: إن اللسانيات ليس لها ما تقدمه لتعليم اللغات. والذي كذَّبته الوقائع فيما بعد، بل وحتى مبادئ نظريته أضحت محل ممارسات تطبيقية في حقل تعليمية اللغات.

ومما يلفت الانتباه هو أن أبحاث كوردر لم يتمَّ تلقيها بالصورة الأفضل لدى نظرائه في المملكة المتحدة، على خلاف ما عوملت به في شمال أمريكا، ويرجع ذلك إلى تقريراته التي كان يطرحها والمنبنية على عدم تبني الصرامة العلمية في قضايا تعليم اللغات الثواني(langues secondes). ومما يمكن التوصل إليه كذلك في مسألة اختلاف تلقي كوردر فيما بين ضفتي الأطلسي، بل وداخل الفضاء الأنجلوساكسوني نفسه أنه أَمَارة على الانقسام الذي يشهده هذا التخصص الفرعي، والذي هو سمة عامة في اللسانيات التطبيقية بكل مجالاتها.

ثم إن هيمنة اللسانيات الوصفية في البحث اللساني البريطاني، طبع أبحاث تعليم اللغات بصرامة يصعب مسايرتها، وخصوصا مع التوجه الذي تبناه كوردر في أبحاثه، بأن أخذت وجهة التركيز على الاكتساب، وما يرافقه من مقاربة لعمليات إنتاج وفهم الكلام، والتفسيرات العقلية والنفسية التي تتدخل فيها، وهي أمور يأباها الوصف اللساني المهمين ضمن ما يعرف باللسانيات البنوية، وتتنافى مع المبادئ التي يقوم عليها، والمرتكزة على الملاحظة. في حين كانت أمريكا تشهد في هذه الفترة التاريخية حالة صعود لنجم الاتجاه المعرفي الذي بدأت بوادره في التجلي مع صعود نجم تشومسكي. مما جعل تلقيه على الضفة الأخرى أفضل مما في بلده الأم.

ويمثل ماك هاليداي(1924:M.A.K Halliday) مع مجموعة من رفاقه الذين شاركوه الهمَّ البحثي نفسه، من أمثال: بيتر ستيرفز (Peter Strevens)* وأنجيس ماك انتوش(Angus McIntosh)* محطة مفصلية في تاريخ تطور اللسانيات التطبيقية، لأنها تمثل مرحلة اكتمال مأسسة اللسانيات التطبيقية بريطانيًّا وأوروبيّا ودوليّا، وبلوغها ذروة النضج والرقي المصطلحي والمفاهيمي، إذ يرجع الدارسون انكباب اللسانيين البريطانيين على موضوعاتها، وعلى الأخص تعميم تعليم الإنجليزية ونشره إلى

---

* Peter Strevens (1922-1989): لساني تطبيقي بريطاني، وأحد مؤسسي مدرسة أدنبرة للسانيات التطبيقية، وعضو هيئة تحرير مجلة اللسانيات التطبيقية(1980-1986)، اشترك مع هاليداي وماك انتوش في تأليف كتاب(The linguistic sciences and language teaching1964) وشغل كرسي الإنجليزية المعاصرة بجامعة ليدز(Leeds) لسنوات.

* Angus McIntosh(1914-2005) لساني، ومعجمي، متخصص في تعليم اللغات وفي اللهجات، وحوسبة اللغات، بريطاني من أصل اسكتلندي، اشتهر بأعماله البحثية حول لهجات بلاده، شغل منصب أول أستاذ للسانيات العامة بجامعة أدنبرة الشهيره، اشترك مع رفقيه هاليدي وستيرفيز في عدد من المؤلفات في إطار مشروع بحثي مشترك.

فترة تصفية الاستعمار بدءا من أربعينيات القرن العشرين إلى الستينيات منه، فقد بحثوا عن الشرعية النظرية التي تؤطر أبحاثهم بعد تأسيس مدرسة اللسانيات التطبيقية (School of applied linguistics.) بجامعة أدنبرة سنة1957. وانخرط هاليداي*، المنتمي إلى من يعرفون بالفيرثيين الجدد، في مدرسة أدنبرة أستاذا للسانيات العامة سنة1958.

وقد تركزت جهود هاليداي في تجلية العلاقة القائمة بين اللسانيات العامة واللسانيات التطبيقية، حيث كان يري أن توظيف النظريات في التطبيقات الميدانية، هو تحيين لها، وتثمين لمكانة اللسانيات التطبيقية ضمن علوم اللغة(linguistic sciences)، وقد تأسست رؤيته هاته وفق زاوية نظر مؤداها: أن وصف لغة ما يعود إلى النظرية اللسانية، وليس إلى تطبيقات اللسانيات، ومن ثمة رأى حصر العلاقة ما بين النظرية اللسانية ووصف اللغات في الاستخدام(use)، الذي كان يفضله على لفظ التطبيق(apply)، وأنه لا يمكن الحديث عن اللسانيات التطبيقية إلا عندما ينجز الوصف، وحينما تُسْقَط التطبيقات على غرض لاحق يقع خارج علوم اللغة.

ومن آرائه في الموضوع أن الدفع بالتطبيقات إلى ميدان الممارسة اللسانية معناه الارتقاء باللسانيات إلى مصاف العلوم، زيادة على أنه سدٌّ لواجب اجتماعي ذي منفعة عامة، على ما في هذا الدور المحتمل للتطبيقات من فضل في تحقيق التغذية الراجعة(feedback) للنظرية، إذ إنها- التطبيقات- تدفع العلوم إلى أن تكون عرضة للتطوير، بوساطة تصحيح مساراتها، وسد الثغرات الحاصلة لحظة التنظير، وهو من المؤكّدين على انعدام الفجوة ما بين النظري البحت والتطبيقي في اللسانيات.

وقد خالف هاليداي فيرث في نقده لإقحام المناهج المستوردة من تخصصات أخرى في الحقل اللساني، فلم ير مانعا في تضمّن اللسانيات التطبيقية لمجالات كالترجمة الآلية التي تستلزم ولوج مختصين من ميادين أخرى كالرياضيات والمعلوميات، وفي هذا انفتاح منه ومسايرة للتطورات التكنولوجية، وقد كان يرى أن دور اللساني في مجال تعليم اللغات هو تقديم توصيفات جيدة للغات يمكن للمعلمين أن يستثمروها في أداء مهامهم التعليمية.

ولا غرابة في أن نجد له انفتاحا على مواضيع، ومجالات تبدو ظاهريا خارج دائرة البحث اللساني، كالمعالجة الآلية للغات وحوسبتها، فقد كان من المشتغلين على هذا الموضوع واشترك في دراسات وأبحاث مع ماك إنتوش اللساني المختص في المعلوميات، الذي ما زالت بعض أنظمة تشغيل الحواسيب تحمل اسمه.

---

*كان ممن شاركوا في إنشاء الجمعية الدولية للسانيات التطبيقية(AILA) سنة1964، وفي تأسيس الجمعية البريطانية للسانيات التطبيقية(BAAL) سنة1967، إضافة إلى الإسهام في المؤتمرات والندوات الدولية التي كانت تعقد لهذا الغرض، وحضور الندوات التي ينظمها برنار كيمادا في مدرسة بيزانسون للسانيات التطبيقية بفرنسا.

ونلحظ أيضا أن هاليداي بمعية من شاركوه أبحاثه قد استخدموا مصطلح سجلات(Registres) بوصفه نسخة معدلة ومعاد صياغتها عن المصطلح الفيرثي "لغات خاصة"، وذلك في معرض حديثه عن ترقية مفهوم التطبيق في تعليم اللغات، وفي أساليب الكتابة لأغراض تقديم المداخلات العلمية، والتجارية أو الصناعية. وكان يرى أنه من غير المفيد مقاربة اللغة في كليتها، أو في دراسة أدبها، بل يجب استخدام لغات متخصصة وخاصة.

ما نخرج به بعد هذه الوقفة مع التيار البريطاني، هو أنه بدءا من الأعمال الممهدة التي أنجزها سويت، مرورا إلى فيرث الذي عايش المرحلة الأولى لمأسسة اللسانيات التطبيقية، وصولا إلى هاليداي الذي كان أحد الذين أسهموا ورفاقه من الفيرثيين الجدد في مأسستها داخل الفضاء الدولي والأوربي، نخلص إلى أن كلا من فيرث وهاليداي كانت لهما نظرة نقدية تجاه المنجز اللساني التطبيقي، فقد كان فيرث يرى أن مدرسة أدنبرة لا يمكن لها الادّعاء بتكوين نظري في اللسانيات.

أما هاليداي فقد كان يتساءل دوما عن مدى صحة هذا التجميع بوصفه تخصصا مستقلا لتطبيقات اللسانيات. إذ أعلن عن مفهوم دينامي للسانيات التطبيقية، في ورقة بحثية، حملت عنوان: اللسانيات التطبيقية موضوع في تطور*، إذ ذهب إلى أن اللسانيات التطبيقية في لحظة تاريخية معينة قد تشكلت من تجميع ظرفي لميادين متنوعة، ومع مرور الزمن اتجهت تلك الميادين نحو الاستقلالية، وبالأخص: الأرطفونيا، والترجمة وتعليم اللغات، ويمكن أن نضيف إليها المعالجة الآلية للغات. فقد استقلت هذه التخصصات عن اللسانيات التطبيقية منذ ستينيات القرن الماضي. وعملت على أن يكون لها مؤتمراتها الخاصة بها، وكذا دورياتها العلمية، وتسجيلاتها الجامعية، ومِنَحُها ومصادر تمويلها، مما أكسبها احتراما أكاديميا.

وكان هاليداي يذكّر في كل مرة، بأن اللسانيات التطبيقية كالرياضيات التطبيقية تماما ليست تخصصا، لأن التخصص يعرّف بوصفه مجموعة من المبادئ والمناهج الموجهة إلى استكشاف وتفسير موضوع جد مخصوص، في حين أن اللسانيات التطبيقية تقوم باستخدام نتائج اللسانيات النظرية لأغراض أخرى ليس منها دراسة اللغة، وكان يقرر في كل مرة أن تقديما كهذا يؤسِّس لفصل صارم جدا ما بين اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية، وفيه اختزال للمسألة، فيصعّب أحيانا رسم الخط المشترك عند الاشتغال على اللغة. ولهذا اقترح أن ينظر إلى اللسانيات العامة على أنها اشتغال على اللغة بوصفها غرضا للدراسة، وأن اللسانيات التطبيقية اشتغال على اللغة بوصفها موضوعا للدراسة.

---

* Applied linguistics as an evolving theme.

وعلى الرغم من نفي هاليداي صفة التخصص القائم بذاته عن اللسانيات التطبيقية، فإنه قد تقاسم مع نظرائه الفكرة الشائعة والمقبولة من الجميع، وهي أنه ومنذ ستينيات القرن الماضي أضحت اللسانيات التطبيقية مؤسسة متكفِّلة بمعالجة المشاكل الحقيقية المرتبطة بلغات العالم(real-world language-based problems).

إن هاليداي على الرغم من إسهامه في مأسسة اللسانيات التطبيقية على مختلف الأصعدة، والهيئات العلمية التي انتمى إليها، وعلى الرغم من التكريم الذي حظي به على أعلى مستوياتها*، إلا أنه أبدى تحفُّظه على كون اللسانيات التطبيقية تخصّصا قائما بذاته، لجملة الأسباب التي قدمها في طروحاته المشار إليها آنفا، وربما هذا ما يفسِّر اتجاهه إلى الدراسات اللسانية النصية التي عُدَّ أحد روادها العالميين، إضافة – في اعتقادنا- إلى كونه شغل كرسي اللسانيات العامة في مدرسه أدنبرة، وبالتالي بقي وفيا لخلفيته المرجعية، وللكرسي الذي يشغله، فلم ير موجبا الإسهام في الانشطار الذي عرفته العلوم اللسانية، فالنظري والتطبيقي وجهان لعملة واحدة، بالنسبة إليه ولذا كان يحبذ الحديث عن استخدامات اللسانيات ويفضله على تطبيقات اللسانيات.

---

*تم هذا التكريم في الدورة الثالثة عشر، لمؤتمر الجمعية الدولية للسانيات التطبيقية، التي جرت فعالياتها بسنغافورة سنة2002، والتي وُشِّح فيها بأول ميدالية ذهبية تسلمها الجمعية